خصائص العربية بين القديم والحديث

د. مبروكة الفرجـــاني خميس ــ كلية التربية (جنزور) جامعة طرابلس .

المقدّمة :

قد لا يكون من قيل الزهو أو المبالغة أن نقول : إن اللغة العربية هي أفضل اللغات(1) ؛ فهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم الذي هو أفضل الكتب ، ولغة الاسلام الذي هو خير الأديان ، ولغة الأمة الاسلامية التي هي خير الأمم ولغة الحضارة الاسلامية التي هي من أعرق الحضارات وأنفعها للبشرية ، وهي بعد ذلك لغة خالدة خلود التاريخ ، تولد لغات وتموت لغات ، وتبلى لغات وتنقرض أخرى وهي باقية بقاء العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ وذلك لأنها محفوظة بحفظ الله – تعالى - القائل **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)** ، [سورة الحجر ، الآيــة : 9] ، وهي بعد ذلك لغة توفر لها من الدّقــة والمنطقية والبيان والمرونة والوفاء بالمعاني مالا يعرف له نظير في غيرها من اللغات ، وقد أدرك هذه الحقيقة العلماء العرب ، واعترف بها المنصفون من جهابذة الغرب ، يقول أبو عثمان عمرو بن بحـــر الجاحظ (255هـــ) :" ولا بد من ذكر الدليل على ان العرب أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والأمثال التي ضربت فيها أجود وأيسر"(2)، ويقول في موضع آخر :" والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة " (3).

والجاحظ يشير هنا إلى عدد من خصائص العربية منها : سعة الألفاظ ، ودقة الدلالة ، وجودة الأمثال ، والبديع ، ويقول أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة (276هـــ) :" وإنّما يعرف فضل القــرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب واقتنائها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنّه ليس في جميع الأمم أمه أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيه العرب خصيصة من الله لما أرهصه في الرسول – صلى الله عليه وسلم - وأراده من إقـــامة الدليل على نبوته بالكتاب..." (4)

ويقول أبو الفتح عثمان بن جني (تـوفي 392هـــ) :" واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت الدائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، يعنـي قضية أن اللغة إلهام أم اصطلاح ، فأجـد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي مختلفة جهات التغول على فكري وذلك أنني تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك على جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر(5) .

تقسيمات البحث :

وقد قسمت البحث إلى محورين ، تكلمتُ في المحور الأول : الخصائص التي جعلت اللغة العربية من أفضل اللغات، وفي المحور الثاني ــ خصائص اللغة العربية

المحور الأول : الخصائص التي جعلت اللغة العربية من أفضل اللغات

وقد أفـرد ابن جني في كتابه الخصائص لتجلية خصائص العربية والتنقيب عن أسرارها وفضائلها فأتى من ذلك بما يشهد على علو كعبه في علم العربية وفقهها . ولابن فارس (395هـــ) كلام مستفيض في فضل العربية في كتابه (الصاحبي في فقه العربية وسنن العرب في كلامها) ، يتجه إلى تفضيل العربية على غيرها لنزول القرآن بها ، ويقرر أن العربية توقيف من عند رب العالمين ، وأنها لغة مصونة مرعية برعاية الله ، وهي أعلى لغة ، لنزول أعلى كتاب بها ، وأعظم ، كما عقد بابا لبيان أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها ، صدره بقوله – تعالى – " **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الــرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** " ، [سورة الشعراء ، الآيــة : 192- 195] فوصفه جل ثناؤه بــأبلغ ما يوصف به الكلام وهو البيان (6).

ولم يكتف علمانا القدامى بالكلام عن فضيلة العربية ، بل تطرقوا إلى الحديث عن عدد من الخصائص التي تجعلها من أفضل اللغات ، وقد أيدهم فيها المعاصرون وأهمها :

1- **التخفيف** :

قال ابن قارس :" ومما اختصت به لغة العرب قلبهم الحروف عن جهاتها ، ليكون الثاني أخفّ من الأول نحو قولهم :" ميعاد " ولم يقولوا موعاد " وهما من

الوعد ، إلا أن اللفظ الثاني أخف ، ومن ذلك تركهم الجمع بين الساكنين ، وقد تجتمع في لغة العجم ثلاث سواكن ومنه قولهم " يا حار " ميلا إلى الخفيف (7) .

ومن مظاهر التخفيف البارزة في العربية غلبة الأصول الثلاثية ، وقد أشار إليها ابن جني إذ يقول :" إن الأصول الثلاثة : ثلاثي ، ورباعي ، وخماسي ، فأكثرها استعمالا وأعجلها الثلاثي ، وذلك لأنه حرف يبتدأ به وخرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه " ثم يقول - مبينا الحكمة من غلبة الثلاثي - :" فتمكّن الثلاثي إنما هو لقلة حروفه " (8).

وقد أشار بعض المعاصرين إلى أن غلبة الألفاظ الثلاثية من خصائص العربية، ولا تكاد تشاركها في هذه السمة الواضحة ، وكان الأصل الثلاثي عمدة الاشتقاق الذي هو من أبرز خصائص العربية " (9) .

وإن مقارنة يسيرة بين العربية وغيرها من اللغات الأوروبية لتظهر لنا صحة هذه المقولة ، ففي هذه اللغات تسود الكلمات الطوال ذوات العدد كما وتعد الجذور الثلاثية سمة اللغات السامية عموما ، ولكن أكثر الساميات اليوم غير مستعمل ، إلا نادرا ، وهذا القليل النادر غير مطابق في أكثره لقواعد الساميات القديمة ، فصحّ ان تعد هذه السمة من سمات العربية .

2- **سعة المفردات** :

والعرب يعبرون عن الشيء الواحد بأسماء كثيرة يقول ابن فارس :" ومما لا يمكن نقله البته اوصاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الأسماء المترادفة ، ومعروف أن العجم لا تعرف للأسد غير واحد ، فأمت نحن غنحرج له خمسين ومائة اسم " (10) .

ويقول ابن فارس – أيضا - :" وحدثني أحد بن محمد بن بندار ، قال :" سمعت أباعبد الله بن خالويه الهمذاني ، يقول :ط جمعتُ للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين " (11)

وقد كتب الفيروز آبادي من بعد كتابا في أسماء العسل ، ذكر فيه أكثر من ثمانين اسما ، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعها ، ويرى الفيروز آبادي أنه يوجد للسيف ألف اسم على الأقل(12) .

ر. م	الكلمة في اللغة العربيـــــة	الكلمة في اللغة الانجليزيـــة	الكلمة في اللغة الفرنســـــية	الكلمة في اللغة الالمانيـــة
1	مبنى	bnilding	Le batiment	Das gebaude
2	جـامعة	University	L, universite	Die universitat
3	مكتبة	library	La biblioiheqnt	Diebucherei
4	تسلية	entertainment	L es divertissement	Die unterhaltung
5	أب	father	Le pere	Der vatar
6	أم	mother	Le mere	Die mutter
7	جـد	Grand-father	Le grend- pere	Der G ross vater
8	جـــدة	Grand-mother	Le grend- mere	Die Gross mutter
9	أخ	brother	Le frère	Der Bruder
10	أخت	sister	Le soenr	Die schwester

ففي هذا الجدول نلاحظ أن الكلمات القصيرة في العربية ذوات الحرفين أو الثلاثة أو الأربعة تقابلها كلمات طويلة في اللغات الأوروبية ، قد تصل إلى عشرة أحـــرف أو تزيد ، ومن المعروف ان أقصى ما تصل إليه الكلمات العربية بالزيادة سبعة احرف في السماء كما في استخرج ، واستعمار وستة في الأفعال كما في استخرج واستعمر في حين أن الكلمات في اللغات الأوروبية قد تصل إلى خمسة عشر حرفا أو أكثر كما في (internationalism) بمعنى الدولية ، و (incomprehensible) بمعنـــى : غامض في الانجليزيـة، و (enstschuldygung) بمعنى : معذرة في الالمانية ، و لا شك أن لهذه الخاصية فوائد جمة في العربية ففيها توفير للوقت والجهد والمال ؛ فالنّطق بالكلمات الصغيرة أخف على اللسان وأســـرع في الوقت وأخصر في الكتابة من الكلمات الطويلة ، وهذا الذي يصرح به ابن فارس والفيروز آبادي ، ويقرره علماء اللغة المعاصرون من الشرق والغرب ؛ إذ يذكر علي عبد الواحد زافي وكان عضوا في

مجمع اللغة العربية بالقاهرة ان الاستاذ (دوهامر De Hammer) جمع المفردات العربية المتصلة بالجمل وشؤونه ، فوصلت إل أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربع وأربعين (13) كما يقرر الدكتور علي عبد الواحد وافي نفسه :" أن من أهم ما تمتاز به العربية أنها أوسع أخواتها السامية ثروة في أصول الكلمات والمفردات ، فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتل عليها اخواتها السامية أو على معظمها ، وتزيد عليها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول ، وأنه تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها فعلها وحرفها ، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والفعال .. ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى ، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم (14) ، ويقول المستشرق الالماني (نولدكه) :" أنه لابد أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات اللغة العربية ، عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدا ، ولكنهم في داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمة خاصة .... والعربية الكلاسيكية ليست غنية فقط بالمفردات ولكنها غنية - أيضا- بالصيغ النحوية " (15) .

وترجع وفــرة المفردات في اللغة العربية إلى خاصّة أخرى ثالثة وهي :

3- **الاشتقاق** :

تلك الخاصية التي تتيح للغة العربية انتاج عدد كبير من الكلمات من جذر واحد ، مثل اشتقاق كاتب ومكتوب ومكتب ومكتبة وكتاب ومكاتبة ... الخ من الجذر كتب ، ويسمي د . نبيل) على هذه الظاهرة بالفائض اللغوي ويشبهها بالشجرة ذات الجذور القليلة والوراق الكثيرة ؛ لذا توصف بأنها شجرة ثقيلة القاع ، فرغم صغر نواة المعجم أقل من عشرة آلاف جذر) تتعد المفردات بصورة هائلة وذلك بفضل لإنتاجية الصرفية العالية ، وتقدر قيمة هذه الانتاجية بقسة عدد كلمات المعجم المشتقة على عدد الصيغ الصرفية ، وهي لا تقل في المتوسط عن 300 كلمة لكل صيغة ، وهي نسبة عالية جدا إذا ما قورنت بإنتاجية قواعد تكوين الكلمات في اللغات الأخرى (16)

والقيمة العلمية لهذه الخاصية أنها تعزز من قدرة العربية على الوفاء بالمتطلبات العلمية الحديثة ، ولاسيما صياغة المصطلحات ، وتوليد الالفاظ الجديدة والبرمجة الالية ، ولعله من المفردات العجيبة أن نجد العربي القديم يضع للجمل والسيف

مئات الأسماء ، ثم نتحيّر نحن اليوم في وضع بضعة أسماء لمخترعات حديثة ، مثل: المذياع ، والتلفاز ، والحاسوب ، وغيرها .

4- الاعراب والتمييز بين المعاني بالحركات وغيرها .

يرى ابن فاس أن من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب الاعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ... ولولاه ما مُيّز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منصوب ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ولا نعت من توكيد (17)

كما يقرر في موضع آخر أن للعرب في ذلك ما ليس لغيرهم ؛ فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني ، يقولون : مفتح للآلة التي يفتح بها ، ومفتح لوضع الفتح ، ومِقص لآلة القص ، ومَقص للموضع الذي يكون فيه القص (18). ويقولون : امرأة طاهر من الحيض ؛ لأن الرجل لا يشاركها في الحيض ، وطاهرة من العيوب ؛ لأن الرجل يشاركها في هذه الطهارة ، وكذلك قاعد من الحبل وقاعدة من العقود " (19)، وتقول: كم رجلا رأيت ؟ في الاستخبار ، وكم رجل رأيت في الخبر يراد به التكثير (20).

وفي هذا الكلام من ابن فارس إشارة مهمة إلى دور الحركات عموماً في التمييز بين المعاني المختلفة ليس فقط على مستوى الاعراب ولكن ــ أيضا ــ على مستوى البنية المفردة.

وقد أشار علماء اللغة المعاصرون إلى هذه الخاصية للغة العربية فيقل الدكتور علي عبد الواحد وافي :" اعتمادا على أقوال المستشرق رينان :" تمتاز اللغة العربية في شؤن التنظيم بتلك القواعد الدقيقة التي اشتهرت باسم قواعد الاعراب والتي يتمثل معظمها في أصوات مد قصيرة ، تلحق أواخر الكلمات لتدلّ على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة وهذا النظام لا يوجد له نظير في أية أخت من اخواتها السامية ، اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية في العبرية والآرامية والحبشية"(21) .

ويقول المستشرق يوهان فوك :" قد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف الاعرابي ، بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة ، قبل عصر نموها وازدهارها الأدبي ، وقد احتدم الصراع

حول غاية هذا التصرف الاعرابي في لغة التخاطب الحي فأشعار عرب البادية قبل الاسلام وفي عصروه الأولى ترينا علامات الاعراب مطّردة كاملة السلطان (22) . والقيمة العلمية لهذه الخاصية أنها تتيح للعربية قدرة هائلة في التعبير عن المعاني والتفنن في الأساليب ، وتجعلها أكثر مرونة وتصرفاً في بناء التراكيب .

5- وفرة مخارج الأصوات :

أشار ابن فارس إلى اختصاص العربية ببعض الأصوات مثل الهمزة ، والحاء، والطاء ، والضاد ، يقول : عن الهمزة :" والعرب تنفرد بها في عرض الكلام ، مثل " قرأ ، ولا يكون في شيء من اللغات إلا ابتداء(23) ، وقال :" ومما اختصت به لغة الغرب الحاء والطاء ، وزعم قوم أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم (24) ، وقال الباقلاني عن هذه الخاصية :" .. ولضيق ما سوى كلام العرب أو لخروجه عن الاعتدال يتكرر في بعض الأسئلة الحرف الواحد في الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيرا كتكرر الطاء والسين في لسان اليونان وكنحو الحروف الكثيرة التي هي اسم لشيء واحد في لسان الترك "(25)

وهذا ما يقرره علماء اللغة المعاصرون - أيضا- ؛ إذ يذكرون أن العربية أكثر أخواتها احتفاظا بالأصوات السامية فقد اشتملت على جميع الأصوات التي اشتملت عليها أخواتها السامية ، وزادت عليها بأصوات ككثيرة لا وجود لها في وواحدة منها : الثاء والدال والغين والضاد .(26)

ويقول المستشرق (برجستراسر):" فالضاد العتيقة حرف غريب جدا غير موجود على حسب ما اعرف في لغة من اللغات إلا العربية "(27)

وقد عني الاستاذ العقاد بهذا الجانب من خواص العربية في كنابه اللغة الشاعرة ، فبعد أن أوضح الفرق بين الابجدية العربية وغيرها من الأبجديات في اللغات الهندية والجرمانية أو اللغات الطورانية أو اللغات السامية ، قال :" وتظل اللغة العربية بعد ذلك أوفر عدداً في أصوات المخارج التي لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها ، فليس هنالك مخرج صوتي واحد ناقص في الحروف العربية (28) ثم يقول :" تمتاز اللغة العربية بحروف لا توجد في اللغات الأخرى كالضاد ، والظاء ، والعين ، والقاف ، والحاء ، والطاء ، أو توجد في غيرها أحيانا ، ولكنها ملتبسة مترددة لا تضبط بعلامة واحـــدة " (29)

وقد عني الدكتور محمد المبارك بهذا الجانب من خصائص العربية ، فقال :" إن أول ما يبدو من صفات الحروف العربية توزعها في أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات ، ذلك أن الحروف العربية تندرج وتتوزع في مخارجها ما بين الشفتين من جهة وأقصى الحلق من جهة أخرى فتجد الفاء والباء والواو الساكنة ومخارجها من الشفين من جانب ، والحاء والعين والهمزة ثم الغين والخاء على التدرج ومخارجها من الحلق أقصاه فأناده من جانب آخر وتتوزع باقي الحروف العربية بينهما في هذا المدرج ، وقد تجد في لغات أخرى غي العبية حروفا أكثر عددا ؛ ولكنها محصورة مدارجها في م=نضاق ضيق وفي مدرج أقصر" (30) ووفي هذا ضيق في الأفق الصوتي واختلال في المميزان الصرفي وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الحروف .

ويراعي العرب في اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي ، فمثلاً: لا تجتمع الزاي مع الظاء ، والسين والضاد والدال ، ولا تجتمع الجيم مع القاف والظاء والطاء ، والغين والصاد ، ولا الحاء مع الهاء ، والهاء قبل العين ، ولا الخاء قبل الهاء ، ولا النون قبل الراء ، ولا اللام قبل الشين .

وأصوات العربية قابلة على مدى العصور والأجيال منذ أربعة عشر قرنا ، ولم يُعرف مثل هذا الثبات في لغة من لغات العالم في مثل هذا لايقين والجزم ، إن التشويه الذي طرأ على لفظ الحروف العربية في اللهجات العامية قليل محدود ، وهذه التغيرات مفرقة في البلاد العربية لا تجتمع كلّها في بلد واحد ، وهذا الثبات ، على عكس اللغات الأجنبية يعود إلى أمرين ، هما : القرآن الكريم ، ونزعة المحافظة عند العرب .

وللأصوات في اللغة العربية وظيفة بيانية ، وقيمة تعبيرية ، فالغين تفيد معنى الاستتار والغيبة والخفاء كما نلاحظ ذلك في : غـــاب ، غار ، غاص ، غال ، غام ، والجيم تفيد معنى الجمع : جمع ، جمل ، جمد ، جمر ، وهكذا ، وليست هذه الوظيفة إلا في اللغة العربية ، فاللغات اللاتينية مثلا ليس بين أنـــواع حروفها مثل هذه الفروق ، فلو أن كلمتين اشتركتا في جميع الحروف لما كان ذلك دليلا على أي اشتراك في المعنى . فالكلمات التالية في الفرنسية مشتركة في أغلب حروفها وأصواتها ، ولكن ليس بينها أي اشتراك في المعنى ، مثـــل : (lvre) سكران

، و (oenvre) أثر أو تأليف ، و (ouvre) يفتح ، و (livre) كتاب ، و (levre) شفة.

والقيمة العلمية لهذه الخاصية انها تعطـــي العربية قوّة في اليان ، ووضوحا شديدا في السمع ، وجمالا في التعبير ، وانسجاما في التركيب .

6- العروض :

قال ابن فارس :" ثمّ للعرب العروض الذي هو ميزان الشعر وبه يعرف صحيحه من سقيمه " وقد أشار غير واحد من المستشرقين إلى اختصاص العربية بعلم العروض ، يقول العلامة المستشرق الفرنسي (لويس ماسنيون) في بحث له بعنوان " مقام الثقافة العربية بالنسبة إل المدينة العالمية :" وأما في علوم اللغة فإن الفكر السامي لم يصل إلى علم العروض إلا عند العرب " (32) .

وقد أفاض الاستاذ العقاد في بحث الخاصية الموسيقية للغة العربية في كتبه اللغة الشاعرة ، ويظهر من عنوان الكتاب ومن شرح العقاد له أنه يعني باللغة الشاعرة اللغة التي بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية ؛ فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات ، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء ، وهذه الخاصية في اللغة العربية ظاهرة من تركيب حروفها على حدة ، إلى تركيب مفرداتها على حدة ، غلى تركيب قواعدها وعباراتها ، إلى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها في بنية القصيدة"(33) .

المحور الثاني ــ خصائص اللغة العربية :

حاول العقاد أن يكشف النقاب عن كثير من خصائص العربية في كتابيه اللغة اشاعرة ، وأشتات مجتمعات في اللغة والأدب " ، وذلك بالاعتماد على الاستدلالات العلمية وأقوال المقارنين اللغويين ، ومن أهم الموضوعات التي تبدو فيها هذه الخصائص عند العقاد : قدم اللغة ، والضمائر ، والجنس والعدد ، التفرقة بين العاقل وغير العاقل ، التفرقة بين الجملتين السمية والفعلية ، ومخارج الأصوات ، والمبني للمعلوم والمنني للمجهول ، والصفات ، و الظروف ، والتعريف والتنكير ، والاعراب ، العروض ، الزمن .

وقد تقدمت الاشارة إلى أقوال العقاد في بعض منها ونضيف إليها ما يلي :

1- **قدم اللغة العربية** :

يقول العقاد :" ونحن نعتقد أن اللغة العربية أقدم من معظم اللغات الحديثة وأن شواهد سبقها في القدم تزيد على الشواهد التي يستدل بها على سبق أقدم اللغات الأخرى" (34) ، ويستدل العقاد على هذه الأقدمية باشتقاق أسماء الحيوانات فيها فإن اللغة التي ترجع الأسماء فيها إلى مصدر مفهوم من مصادرها تسبق اللغات التي تتلقي هذه الأسماء الجامدة أو منقولة بغير معنى يؤديه لفظها الدال عليها في أحاديث المتخاطبين بها (35) . فأسماء الأسد والكلب والصقر ، والغراب ، والفرس ، والحمار والخروف، وعشرات عسرها هي ككلمات ذات معنى يفهمه المتكلمون بها ، ويطلقونه أحياناً أطلاق الصفات المشابهة بين هذه الحيوانات وبين غيرها . يقال : أسد للصيد أغــراه به ، أسد عليه اجتــرأ ، آســـد بين القوم أفسد بينهم ، ومعنى هذا ظان العرب عرفــوا هذا الحيوان وهم يتكلمون بلغتهم هذه ويستخدمونها للوصف أو الاشتقاق والمجاز .

وكذلك معنى الكلب ممن العض والقبض والنسر من الجرح والنقص والتمزيق ، والصقر من الحدة في الحرارة أو في الطعم او في اللمس والفرس من حدّة النظر والاستعانة على الافتراس (36) .

وهكذا يستمر العقاد في تأصيل أسماء الحيوانات في اللغة العربية ، ويقارن بينها وبين الانجليزية ؛ حيث نجد أسماء الحيوان في الانجليزية كلّها منقولة من غيرها فالأسد (Lion) مــن (ليو Leo) اللاتينية ، والحصان (Horse) من (روس Ross) الجرمانية ، والحمار (آس Ass) من (أسنس) اللاتينية (37). ثم يقرر أن العلم بالحيوان المستأنس ، أو الحيوان المتوحش أقدم شـــيء في لغات بني البشر ، وأنه لالا خلاف في دلالة أسماء الحيوان بألفاظها المشتقة على قدم اللغة العربية عند المقابلة بينها وبين اللغات الأوروبية من أقدم عهودها التاريخية .

يوضح الأستاذ أنور الجندي أن اللغة العربية تملك من المرونة ما لا تملكه لغة حية أخــرى فالألماني المعاصر مثلا لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده من ألف عام بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الاسلام " (38) . ويقول الدكتور أحمد مطلوب :" إن قِدم العربية وتواصلها خلال قرون طويلة واحتفاظها بالقواعد والأصول العامة من

أول خصائصها ، وأن ذلك التواصل جعل أبناءها يقرءون تراثها الضخمة وينتفعون به ... ، وتلك مزية لا تعرفها اللغات القديمة أو الحديثة " (39) .

2- **التفرقة بين الجملتين الأسمية والفعلية** :

كذلك يقارن العقاد بين العربية واللغات الأوروبية من حيث نوع الجملة واستخدامها فيقرر ان الجملة في اللغات الأوروبية اسمية يتقدم فيها الفاعل على الفعل على خلاف الجملة في العربية فإن الفاعل فيها يتأخر عن الفعل ، وقد زعم بعض الغربيين ان تأخير الفاعل في العربية مرده إلى القدرية الشرقية التي ترد كل شيء إلى الغيب ، ومنهم من يزعم أن هذا الاختلاف راجع إلى درجة الشعور بثبوت الشخصية الانسانية فإن هذا الشعور قوي لدي الأوربيين ؛ ولكنه ضعيف عند الشرقيين ، وقد فند العقاد هذه الأقوال بأنه ليس صحيحا ما يشاع من أن اهتمام الأوربيين بالفعل أقل منه عند الشرقيين فإن الفعل في اللغات الأوربية عنصر أساسي لا يستغنى عنه في الجملة ، وأنهم يطلقون على التركيب الخالي من الفعل اسم العبارة (Phrasa) تمييزاً لها من الجملة (Santanca) ، ومعنى هذا أن أي تركيب يخلو من الفعل غير مفيد ، وليس الوضع كذلك في اللغة العربية فإنه يمكننا أن نقول :" رجل في الدار" ، فيفهم منه ما يفهم من قولنا في اللغة الانجليزية : " رجل يوجد في الدار " (40).

كذلك ليس صحيحا ما يشاع من أن العربية تبدأ بالفعل دائما فالجملة الاسمية موجودة في اللغة العربية وليست مع وجودها قليلة الاستعمال في مواضعها فليس تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزا عن التركيب الذي يتقدم فيه الفاعل على الفعل ، ولكنه تقسيم للكلام على حسب مواضعه" (41)، ثم ينتهي العقاد إلى القول بأنه متى ثبت لنا الفرق بين موقع الفعل والفاعل في الجملتين الاسمية والفعلية فالاكتفاء بالجملة الاسمية كما تقع في كلام الأوربيين نقص منتقد ، وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء ، ويوضح العقاد أخيرا دقّة العربية في التفرقة بين الجملتين في نحو قولنا :" محمد حضر " ، وقولنا :" حضر محمد " ، فالأول يقال إذا كنا ننتظر خبرا عن محمد أو عن حضوره على الخصوص ، والآخر يقال إذا كنا ننتظر الفاعل سواء كان محمدا أو عليا أو حسنا ، فهذه مزية من المزايا التي تكشف عنها المقابلة بين لغة الضاد واللغات الأجنبية " (42).

ضمائر الجنس والعدد :

يرى العقاد أن الجنس في الأعم الأغلب من اللغات الهندية ينقسم إلى ثلاثة أقسام : مذكر ومؤنث ومحايد ، أي : ليس بالمذكر ولا بالمؤنث ، وهذا وضع عقلي مخطـــئ ؛ لأن التقسيم الصحيح في الجنس المتميز أنه مذكر ومؤنث ، ليس هنالك جنس ثالث متميز يسمّى بالمحايد ، ولو على الشذوذ ، كما يعرض للذكر المشكل او الأنثى المشكل ؛ فإنهما في حقيقة التقسيم ذكر غير متميز أو أنثى غير متميزة " (43) .

وفي اللغة العربية تمييز بين الضمائر في حـــالات الافراد والجمع لا يعرف لغيرها بعمومه ودقته وتنوع تصريفاته فـــ: (**هـــم**) لجمع الذكور ، و(**هـــن**) لجمع المؤنث ، و(**أنتَ**) بفتح التاء للمخاطب المفرد ، و(**أنتِ**) بكسرها للمخاطبة المفردة، و(**أنتـــم ، وأنتـــن**) للمخاطبين والمخاطبات ، ولا يوجد لغة حية تلتزم التفرقة على قواعدها المطّردة كما تلتزمها اللغة العربية (44) .

ويذكر العقاد من مظاهر دقّـــة اللغة العربية وتطورها ، دلالتها الصحيحة على العدد ، فالضمائر في اللغات الهندية والجرمانية لا تعرف غير حالتين لضمير العدد هما : حالة الافراد ، وحالة الجمع ، ولكن اللغة العربية تعرف لها حالة ثالثة هي حالة المثنى ، وهو من وجهة التفكير المنطقي ليس بالمفرد ، ولا الجمع ، فإن اثنين لا يكونان جماعة من الناس أو غيرهم ، والدقّة البالغة في اللغة العربية أنها لا ترى لزوما عقليا لتنويع ضمائر الثلاثة وما فوقها ؛ لأن الفرق بين الثلاثة والأربعة كالفرق بين الثلاثة والعشرة والعشرين ليس فرقا في كنه الجمعية أو في الخاصة الجمعية ، ولكنه فرق في صغر الجماعة وكبرها (45).

ويشير المستشرق الالماني (برجستراسر) إلى خاصية ضمير المثنى بقوله :" ولأنّ المخاطب المثنى مشتق من المجموع وضعناه بعد في الجدول ويتضح من ذلك أنه حديث بالنسبة إلى سائر الضمائر ، ولا يوجد في إحدى اللغات السامية سوى العربية " (46).

وتتم الدقة حين نلاحظ أن اللغة العربية تستدرك التفرقة بين الضمائر بالتفرقة بين جموع القلة وجموع الكثرة فإن التفرقة بين الثلاثة والألف بضمير خاص غير معقولة في باب التفرقة بين الجماعة وغير الجماعة ، ولكن التفرقة بين جمع للقى وجمع للكثرة هو المعقول في حساب الفكر وفي حساب الأرقام على السواء (47).

وقد ذكر (برجستراسر) أن من خصائص العربية حصر صيغ التكسير ، وهـــي :(**فعلة، وأفــعل ، وأفــعلة**) في القلة

4- **الفاعل بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول والصفات المشتقة** :

تحدّث العقاد عن الفاعل في العربية وذكر أنه يعبر عنخه بأكثر من صيغة من خـــلال المبني للمعلوم والمبني للمجهول ، واسم الفعل صيغ المبالغة ، والصفة المشبهة وأوضح خصوصية العربية في ذلك بأن الفعل المبني للمعلوم موجود في لغتنا وفي اللغات الأخرى ؛ ولكن صيغة المبني للمجهول تختلف كثيرا بين هذه اللغات ، لأنّ العربية تدل على المبني للمجهول بصيغه خاصة ، ولكن اللغات الأخرى تدل على المبني للمجهول بعبارة لا لاختلاف فيها التركيب الفعل على كلتا الحالتين . نحن نقول :" فتح الرجل البابَ" ، و " فُتــح الباب " بصيغة المجهول ، ولكن العبارة الأوربية التي تدل على ذلك تقابل قولنا :" إن الباب يكون مفتوحا " أو إن الباب صار مفتوحا " ، وهو تعبير يخلو من دقّة الصيغة العربية ؛ لأنه أقرب إلى وصف منه إلى الاخبار .

وتزيد اللغة العربية بصيغة لا وجود لها عندهم ، وهـــي صيغة الفعل المطاوع فيقول القائل :" انفتح الباب " ، ويعبّــر بذلك عن معنى لا تدل عليه دلالته الدقيقة كل من صيغتي المبني للمعلوم والمبني للمجهول ، فإذا قلنا فتح محمد الباب " ، فهذا لمن يهمه من الذي فتح الباب ؟ ،وإذا قلنا :" فُتــــح الباب " ، فالمتكلم يخبر أنه لا يعرف الفاعل ، وأما " انفتح الباب " فيقال : لمن يتنظر فتح الباب ، ولا يعنيه من الذي فتحه ، كما لا يعنيه أن يقول له المتكلم إنه يجهله او يسكت عنه .

يقول العقاد :" واللغة الدقيقة التي استوفت وجوه الدلالة هي اللغة التي تلاحظ مقتضى الحال في كل عبارة من العبارات الثلاث , ولا تستخدم عبارة واحدة لموضعين ملتبسين ، بل تستخدم كل عبارة لموضعها الذي لبس فيه "(49).

وهكذا يستدل العقاد على أفضلية اللغة العربية وتميزها باستدلالات عديدة تنأى عن أن تكون مجرد دعـــوى أو مبالغة .

ولو أن هذا الكلام عن أفضلية العبية وتميزها صدر عن العلماء العرب وحدهم لقبل إنه تعصّب ومفاخرة ، فكيف إذا قاله كبار علماء الغرب ومستشرقوه ؟ والحق ما شهدت به الأعداء .

وبعد، أفـــلا يحق لنا معشر العرب والمسلمين ان نعتز بهذه اللغة التي هي هويتنا وقوام شخصيتنا ، وان نحافظ عليها ونغرس حبها في قلوب أبنائها وان نحرص على تعلمها وتعليمها ونشـــرها قبل أن تصبح أثـــراً بعد عين ،(فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين).

الخاتمـــــــة :

وفي نهاية هذا الجهد المتواضع حول اللغة ومزاياها خلص البحث إلى النقاط الآتية :

1- اللغة العربية من أفضل اللغات ، والقول بذلك لا يتنافى مع المنهج العلمي ؛ لأن التفاضل كائن بين أشياء كثيرة في حياتنا ، بين البشر وغير البشر ، فكما يتفاضل الناس في مواهبهم وملكاتهم تتفاضل لغاتهم في خصائصها .
2- من أهـــمّ خصائص العربية القدم والامتداد عبر آلاف السنين ، الأمـــر الذي منحها قـــوّة وانتشارا وثباتا يندر وجوده في غيرها من اللغات ، فالعربي يمكنه أن يفهم شعر امرئ القيس ، وزهير ، وعنترة ، ممن كانوا يعيشون في الجاهلية قبل الاسلام في حين أن الالماني أو الفرنسي أو الانجليزي لا يستطيع أن يفهم تراث أجداده الذين كانوا يعيشون منذ بضعة قـــرون .
3- للغة العربية خاصية الاشتقاق الذي يعني توليد عدد كبير من الكلمات من أصل واحد مع بقاء العلاقة المعنوية واللفظية بين الأصل وما تفـــرع منه ، مما يؤدي إلى توليد عدد لا محدود من الكلمات من جذور محدودة ، ويمنح هذا العربية قدرات فائقة على استيعاب المعرف الحديثة
4- خاصية الإعـــراب بالحركات التي يتحقّق بها التمييز بين المعاني المتلبسة ، وهي ظاهرة فريدة لا تعرف في أكثر اللغات اليوم ، وقد شهد بذلك كبر علماء الغرب ، فيقول المستشرق (رينان) وهذا النظام يعني الاعراب :" لا يوجد له في أية أخت من أخواتها السامية اللهم إلا بعض أثـــار ضئيلة بدائية في العبرية والآرامية والحبشية .
5- من خصائصها العربية وفـــرة مخارج الأصوات فيها وتوزيعها توزيعا عادلا على مدارج جهاز النطق بحث تشمل ما بين الشفتين إلى أقصى الحلق وتهمل فيما سواها من اللغات بعض المخارج أو يختلط

بعضها ببعض أو تتكرر ؛ كما نجده في غياب الأصوات الحلقية أو بعضها واختلاط حروف (b) و (P) ، و(F) و (v) في اللغات الأوروبية وغيرها .

6- ومن خصائصها – أيضا- سعة المفردات والتخفيف والاطراد ، والاختصار ، والمناسبة الشديدة بين اللفظ والمعنى ، والتمييز الواضح والدقيق بينن المذكر والمؤنث ، العاقل وغير العاقل ، والمفرد والمثنى والجمع ،لا والمرونة الشديدة في التصريف والتقويم والتأخير ، وكل ذلك يدل على كمال هذه اللغة وشرفها وفضلها وقدرتها على مواكبة تطورات العصر في العلوم والتقنية ، وهو ماشه به علماء العرب والغرب على السواء ، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

1- القول بتفاضل اللغات لا يتنافى – من وجهة نظـــري - مع المنهج العلمي ، وإن خالف في ذلك أكثر علماء اللغة المعاصرين ؛ ذلك لأن التفاضل كان بين كل شيء، بين البشر وبين الدواب وفي الأطعمة ، والأشربة ، والثمار والأمكن ، وغيرها حتى بين الرسل والملائكة ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة في أكثر من موضع ؛ إذ يقول الله – تعالى - :" تلك الرسل ..." سورة البقرة (253] ، ويقول - سبحانه وتعالى - عن الأطعمة :" ونفضل بعضها على بعض في الأكل " [سورة الرعد الآية : 4] ، ونحن نرى البشر يتفاوتون في مواهبهم وملكاتهم العقلية والنفسية والجسمانية ، ونرى الشعوب والمجتمعات تتفوت في خصائصها ومواردها وظروفها فكيف لا تتفاضل في اللغات ؟

2- ينظر : البيان والتبين : الجاحظ ، 1/ 384.

3- المصدر السابق ، 4/ 55.

4- تأويل مشكل القرآن ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ص: 12 .

5- الخصائص : ابن جني ، تحقيق : النجار ، 1/ 47 .

6- الصاحبي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ص: 16 .

7- المصدر السابق ، ص: 20 .

8- الخصائص: ابن جني ، 1/ 65.

9- خصائص العربية : محمد المبارك ، ص: 26 ، وبحوث لغوية : أحمد مطلوب ، ص: 29 .

10- الصاحبي : ابن فارس ، ص: 21 .

11- المصدر نفسه ، ومن أسماء الأســد المذكورة في المعاجم : الليث ، وأسامة ، هزبر ، ضرغام ، رنبال ، ضيغم ، ضمضم ، الصنة ، الضماضم ، الضباث ، بيعس ، ساعدة ، حلبس ، حلابس ، الطيثار ، حيدرة ، العوف ، العرفاس ، الفرانس ، الفرناس ، أبوفراس ، القسور ، القسورة ، خنابس ، قصلقص ، فرافص ، قضلقض ، كهمس ، ضرالك ، الدوسك ، الدوكس ، الضيثم ، القشعم ، الهمام الهيصم ، الهصمصم ، هراس ، هموس ، الهواس ، الهرماس ، هصوؤر ، هيصر ، هيصار ، هصار ، مهصر ، هصر ، هصرة ، الشيظم ، الشيظمي ، العرباض ، الشابك ، الورد ، الخبعثت=نة ، الخبعثنة ، العثمثم ، الشجعم ، العرندس ..." الخ وينظر : المخصص : ابن سيده ، 4/2-3 .

12- ينظر : فقه اللغة د . على عبد الواحد وافي ، ص: 169 ، ومن أسماء السيف : الصارم ، الصروم ، الاصليت ، الصلت ، المنصلت ، الخشيف ، الخشوف ، الخاشف ، (وكله بمعنى الماضي) قاصل ، قصال ، هبار ، لهذم ، باتر ، رسوب ، الهذام ، القاضب ، المخضل ، الصمصامة ، الخدوم ، هذاذ ، هذهاذ ، .. الخ . وينظر المخصص : ابن سيده ، 9/3 .

13- فقه اللغة ، ص: 169 .

14- المصدر نفسه . ص: 168 .

15- نقلا عن اللغة العربية : نذر حمدان ، ص: 133 .
16- اللغة العربية والحاسوب ، ص: 286 .
17- الصاحبي ، ص: 76.
18- ينظر : الصاحبي ، ص: 309- 310 .
19- - الصاحبي ، ص: 310 .
20- المصدر نفسه .
21- فقه اللغة ، ص: 210 .
22- - العربية : يوهان فوك ، ص: 15 .
23- ينظر : الصاحبي ، 123،124 .
24- المصدر نفسه .
25- اعجاز القرآن : ص: 87.
26- فقه اللغة: علي عبد الواحد وافي ، ص: 164، 165.
27- التطور النحوي للغة العرب ، تحقيق : رمضان عبد التواب ، ص: 18 .
28- اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد ، ص: 13- 14 .
29- المصدر نفسه ، ص: 13 .
30- خصاص العربية ، ص: 17 .
31- ينظر : الصاحبي ، ص: 77.
32- نقلا عن فقه اللغة : علي عبد الواحد وافي ، ص: 248.
33- اللغة الشاعرة : العقاد ، ص: 11 .
34- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص: 16- 17 .
35- المصدر نفسه ، ص: 17 .
36- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص: 16- 17 .
37- المصدر نفسه ، ص: 19 .
38- الفصحى لغة القرآن : أنور الجندي ، ص: 301 .
39- بحوث لغوية ، ص: 26 .
40- ينظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص: 56- 61 .
41- المصدر نفسه ، صً: 61
42- المصدر نفسه
43- ينظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ،ص : 72- 73 .
44- المصدر نفسه .
45- المصدر نفسه ، ص: 74 .
46- التطور النحوي ، ترجمة : رمضان عبد التواب ، ص: 78 .
47- ينظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص: 75 .
48- التطور النحوي ، ص: 111.
49- ينظر : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص: 62 – 64.